

الفصل الرابع

هاتان تفاحتان حمراوان؛

دراسة في التحيز وعلاقة الدال بالمدلول

هل يمكننا تخيل لغة دقيقة تماماً، ترتبط فيها الدوالُ بمدلولاتها بشكل حتمي آلي كامل، لا يفصل بينهما فاصل، ولا توجد بينهما ثغرات، بحيث يكون لكل دالٌ مدلول واحد (يمكن التوصل إليه من خلال الكمبيوتر)؟!

لو حاولنا ذلك لاكتشفنا أن هذا لا ينطبق إلا على اللغة الجبرية الصارمة، حيث لا نتعامل إلا مع رموز جبرية مثل «أ»، و«ب»، و«س». ولكن لغة الجبر لا تشير إلى أي شيء خارج ذاتها، فهي بريئة تماماً من الواقع (وكأنها آلهة حجرية قديمة هجرها عابدها!)؛ ولذا يتطابق الدال والمدلول تماماً. بل . . . ولا داعي للتطابق، إذ إنه لا يوجد مدلول أساساً. ف«أ» هي هي، و«ب» هي أيضاً، أما «س» (الإنسان) فهو يختفي تماماً؛ إذ لا حاجة لنا به في النسق الهندسي الجبري الحتمي .

ولكن لغة الدوال بدون مدلولات تستدعي «لغة» ثانية، وهي لغة المدلولات دون دوال، وهي نقطة الحلم المطلق . . . نقطة بريئة أيضاً من الواقع، ذاتٌ كاملة، مكتفية بذاتها، تفشل كل الدوال في التعبير عنها. وكلما اتسعت الرؤية، كما يقال، ضاقت العبارة، إلى أن نصل إلى النقطة التي يتوهم فيها صاحب الرؤية أنها - والعياذ بالله - متسعة إلى درجة أنها تشمل كل شيء، عندئذ لا تضيق العبارة وحسب، وإنما تتفتت وتتبعثر الكلمات والدوال ثم تتلاشى، «ولا يبقى إلا الصمت»!